الفصل الخامس

ملاذ آمن

كان بجانب الصخور مدخل سري إلى سلسلة من الكهوف. أشار هوكاي إلى الجميع ليدخلوا إلى الكهف، وبعد أن دخلوا بين الجدران الصخرية توجه هوكاي وأنكس إلى الخارج لحراسة المكان.

سألت أليس: «هل تظن أننا في أمان الآن يا دانكن؟»

قبل أن يجيبها، قال هوكاي: «النيران تزداد وهجًا يا أنكس. أرخ البطانية فوق مدخل الكهف.»

صاح دانكن: «هل نحن في أمان هنا؟ هل هناك خطر أن يباغتنا أحدهم؟»

تحرك شيء في مؤخرة الكهف فصرخت الفتاتان في ذعر، لكنه كان تشينجاتشجوك يعرفهم بالمدخل الآخر للكهف.

قال هوكاي وهو متجه نحو مؤخرة الكهف: «انظروا، هناك مخرج آخر. ستكونون في أمان هنا.»

تطلع دانكن حوله ثم سأل: «هل هذه جزيرة أو شيء من هذا القبيل؟»

أجابه هوكاي: «نحن بين شلالين، فالنهر فوقنا وأسفلنا.»

أثناء إعداد المجموعة لعشاء بدائي من لحم الغزلان، بذل أنكس ما في وسعه ليتأكد أن كورا وأليس تشعران بالراحة. وجلس تشينجاتشجوك بعيدًا عن المجموعة وراقب كل شيء بعناية.

قال هوكاي للموسيقي: «والآن، لست أعرف من أنت.»

أجابه الموسيقي: «أنا ديفيد جاموت.»

سأله هوكاي: «أخبرني ما مهنتك؟»

أجابه ديفيد: «أنا أعلم الغناء.»

قال هوكاي: «تلك مهنة غريبة. لماذا لا تغني لنا قليلًا؟ هذا سيروح عن الفتاتين؟»

بدأ ديفيد يغني في هدوء، وانضمت إليه كورا وأليس في الغناء.

وفجأة جاءت صيحة غريبة أسكتت الغناء، وعم الصمت المكان.

همست أليس: «ماذا كان ذلك؟»

لم يجبها أحد. وتحدث هوكاي إلى الموهيكانيين، وبعدها غادر أنكس الكهف في هدوء.

قال هوكاي: «لا ندري مصدر هذه الصيحة، فهذا الصوت لم نسمعه من قبل في الغابة.»

سألته كورا: «أليس هذا الصوت ما يطلقه الجنود قبل المعركة.»

قال هوكاي: «لو أنك سمعت من قبل صرخة محارب، لما خلطت قط بينها وبين هذا الصوت.»

عاد أنكس إلى الداخل.

سأله هوكاي: «هل ترى النيران من الخارج؟» فهز أنكس رأسه نفيًا.

قال هوكاي للفتاتين: «نحن بأمان إذن.» ثم أشار إلى الكهف الثاني وقال: «اذهبا يا كورا أنت وأليس وخُذا قسطًا من الراحة. سنقطع معظم غد سفرًا، أنتما بحاجة إلى الراحة.»

نهضت كورا وفعلت ما طلبه هوكاي، ونهضت أليس أيضًا، لكن قبل أن تشق طريقها داخل الكهف طلبت من دانكن أن يأتي معهما. قالت: «أرجوك لا تتركنا وحدنا، فقد أثارت تلك الصيحة المخيفة ذعري بشدة.»

قال دانكن: «لنتفحص الكهف أولًا ونتأكد أنه آمن.» وأمسك بشعلة من النيران وأضاء بها في كل اتجاه، وتفقد المكان حوله بعناية ثم قال: «الرجال الطيبون يحمون الجهة الأمامية من الكهف، ومن المستحيل أن يصل أي شخص إلى مؤخرة الكهف دون أن نسمعه. أؤكد لكما، أنتما في أمان تام.»

قالت أليس بصوت خافت: «أعتقد أن أبي قلق علينا للغاية.»

قالت كورا: «أليس، يجب أن تتحلي بالشجاعة. أنا أختك الكبرى، اقتدي بي.»

أضاف دانكن: «وأبوك رجل عسكري، وهو يعلم أنني معكما للحفاظ على سلامتكما. فهذا واجبي.»

قالت أليس: «لكنه أبونا مع ذلك، وأنا واثقة أنه قلق.»

وقبل أن ينطق أحدهما بكلمة أخرى دوت الصيحة العالية الحادة مرة أخرى. رفع هوكاي البطانية التي تغطي المدخل ونظر إلى ثلاثتهم. وارتعدت الفتاتان، وحتى وجه دانكن الشجاع بدا مرتبكًا.

كان هناك خطر ما يحيط بهم، وحتى رجل يألف الغابات مثل هوكاي لم يكن مطمئنًّا تمامًا لما قد يحدث.

الفصل السادس

اكتشاف مصدر الصوت

قال هوكاي للفتاتين: «انتظرا هنا، وأنت يا دانكن، يمكنك أن تأتي إلى الخارج لمراقبة الغابة معنا.»

سألت كورا: «هل نحن في خطر كبير؟»

أجابها هوكاي: «من أصدر ذلك الصوت هو وحده من يعلم ذلك.»

قالت كورا: «ماذا لو لم يكن رجلًا وإنما شبحًا؟ أو ربما كان أعداؤنا يصدرون ذلك الصوت المروع لإخافتنا.»

قال هوكاي: «ما من صوت بشري يمكن أن يخدعني. أنا أعلم أصوات هذه الغابة تمامًا. ومع ذلك لا أستطيع أنا أو أنكس أو تشينجاتشجوك معرفة ذلك الصوت.»

قال دانكن: «أمر عجيب. هيا بنا نرَ ماذا يمكن أن يكون ذلك الصوت.»

قالت كورا وهي تجذب أليس إلى جانبها: «سنأتي معكما.»

قال دانكن: «أنا مصر على أن تمكثا هنا، أنا مسئول عن سلامتكما، ولا أظن أن أباكما كان سيقبل أن أسمح لكما بالخروج في الغابة ونحن لا نعلم مصدر ذلك الصوت.»

قالت كورا: «لكن يا دانكن ألن نكون في أمان أكثر إذا كنا معك أنت وهوكاي؟»

قال هوكاي: «قد تكون على حق. تعاليا، سنخرج كمجموعة.»

هب نسيم قوي طوال المساء، وكان الهواء باردًا، وسعد الجميع بالوجود في الغابة. كان كل شيء ساكنًا. لم يكن هناك ما يتحرك في الغابة سوى الجداول والشلالات. كان جميعهم ينظر تجاه الشاطئ، في محاولة منهم لاكتشاف مصدر الصوت المروع.

قال دانكن: «لا يوجد شيء سوى النهير، لولا ذلك الصوت لكنا استمتعنا بهذه الليلة. أتساءل ...»

قاطعته أليس: «صمتًا! اسمع.»

وكالمتوقع دوى الصوت الغريب مرة أخرى.

صاح هوكاي: «أظهر نفسك يا صاحب الصوت. أظهر نفسك الآن!»

قال دانكن: «مهلًا، أعرف ذلك الصوت. هذا الصوت يصدره الحصان عندما يكون في ورطة. لم أتعرف عليه من قبل لأنه كان يتردد بين جدران الكهف. لقد سمعته في المعارك. لا بد أن أحد الخيول واقع في شَرك ما.»

تحدث هوكاي إلى أنكس وطلب منه تفقد الخيول.

وقال للباقين: «انصبوا خيمة هناك، أسفل تلك الشجرة. سننتظر هنا حتى بزوغ الضوء الأول من الفجر.»

زال قلق هوكاي بعد أن عرفوا مصدر الصوت. وعاد أنكس وأخبرهم أن أحد الخيول حُبِسَ حافره في جذر شجرة.

رقدت الفتاتان إحداهما بجانب الأخرى واستغرقتا في النوم على الفور. ومرت ساعات. ونام ديفيد ودانكن أيضًا. ولم ينم هوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس؛ فقد ظلوا يراقبون الغابة.

وفي النهاية، مع بزوغ ضوء واهن من النهار، نهض هوكاي واقفًا وأيقظ دانكن قائلًا: «أيقظ كورا وأليس، واستعدوا وقابلونا عند الشاطئ. سأحضر الزورقين.»

قال دانكن: «لا بد أن النعاس غلبني، فقد حاولت أن أظل مستيقظًا بالفعل.»

قال هوكاي: «لم يطلع النهار بعد. أسرع، وكن هادئًا.»

جذب دانكن الشال الذي كان يغطي كورا وأليس. رفعت كورا يدها كما لو كانت تطلب منه التوقف عن ذلك، أما أليس فتمتمت في نومها: «كلا، كلا يا أبي. دانكن كان معنا، لم نكن وحدنا.»

ابتسم دانكن ثم همس: «كورا، أليس، حان وقت الاستيقاظ.»

وفجأة دوت أصوات وصيحات مروعة من كل اتجاه؛ فانتصبت كورا في جلستها على الفور وصرخت أليس.

نهض ديفيد وقال: «سحقًا، ماذا كان ذلك؟»

دوى صوت رصاصة، ومرت من جانب ديفيد، لكنها لامست أذنه. لحسن الحظ أمسك به دانكن قبل أن يسقط، ثم جذب ديفيد والفتاتين إلى الكهف مرة أخرى: «ستكونون في أمان هنا.»

جاء هوكاي راكضًا تجاههم وقال: «إنه محظوظ لأنه لا يزال على قيد الحياة.»

سألته كورا: «هل سيكون بخير؟»

أجابها هوكاي: «امكثي هنا معه، سنعود فور أن نتمكن من ذلك. إذا كان لديك منديل ضعيه فوق أذنه. سيستيقظ عما قريب، فإصابته ليست بالغة.»

سحبت كورا منديلها من حزامها وفعلت كما أخبرها هوكاي.

سمعت الفتاتان صرخات وصيحات ونداءات من الغابة.

أسرع هوكاي إلى أنكس وتشينجاتشجوك، اللذين كانا يصدان هجمات الأعداء. وانتظر دانكن حتى يفيق ديفيد، ثم نهض هو الآخر ليلحق بالآخرين.

قالت أليس: «لا تذهب يا دانكن.»

ابتسم في رقة لها سعيدًا بخوفها عليه وقال: «إنه واجبي. هناك ما لا يقل عن أربعين رجلًا، وعليّ مساعدة هوكاي. سأكون بخير، أعدك بذلك.»

تسلل دانكن إلى الخارج وانحنى بجانب هوكاي فوق الصخور أمام الكهف. راقب الرجلان أعداءهما وهم يتمركزون عند النهر. حاول أفراد من القبيلة المعادية عبور النهر، لكن التيار كان قويًّا للغاية. غرق أحد المحاربين في الماء بالقرب منهما، وكاد دانكن أن يهب لنجدته.

همس هوكاي: «انتظر، ستفضح أمرنا إذا غادرت الآن.»

صفر هوكاي، فحضر أنكس إلى جانبهما. وفي اللحظة ذاتها خرج أربعة رجال، من بينهم ماجوا، من الغابة، لكنهم كانوا بعيدين عنهم بعدة ياردات، لكن صدى صيحاتهم تردد في المكان من حولهم. وانتظر هوكاي وأنكس بصبر حتى يقتربوا.

وعندما اقتربوا في النهاية جرت معركة ضارية. سُمِعَت صرخات حادة وصيحات سريعة. ودار العراك بالأيدي والقبضات، وقاتل دانكن بكل قوته. وببطء سقط الأعداء.

صاح هوكاي: «هيا! اركضا إلى الكهوف.»

أطلق أنكس صيحة وتبع دانكن وهوكاي إلى المخبأ بين الصخور.

الفصل السابع

رصاصة من بين الأشجار

لم يصب أحد بأذى في المعركة سوى ديفيد. ظل تشينجاتشجوك في موقعه، فيما رقد هوكاي على الأرض في مكان آمن ومنعزل وراقب الغابة بعناية. وسُمعت أصوات طلقات من مسافة بعيدة. ووقف أنكس متيقظًا لحراسة المكان.

صاح هوكاي: «دعهم يهدرون طلقات الرصاص!» ثم ضحك وقال: «نحن نعلم أننا في أمان.»

تمدد دانكن بجانب هوكاي وقال: «أنا مدين لأنكس بالكثير. فور أن تركت الكهف باغتتني أحد رجال العدو، فجذبني أنكس بعيدًا وأنقذ حياتي.»

ظهر أنكس بجانبهما فجأة. ربت أنكس على ظهر دانكن وقال: «أصدقاء؟»

أومأ دانكن وأجاب: «بالطبع!»

عندئذ أصابت رصاصة صخرة بجانبهم، فقفز دانكن. ووضع أنكس يده فوق فمه، مشيرًا له بأنه يجب أن يصمتوا. ثم أشار إلى شجرة بلوط، حيث يجلس أحد أعدائهم محاولًا الاختباء.

همس هوكاي: «تعال يا أنكس، علينا أن نسرع.»

نهض هوكاي وأنكس سريعًا وغادرا مكان الاختباء الآمن. وانضم إليهم تشينجاتشجوك، وانطلق ثلاثتهم نحو شجرة البلوط. واستمرت المعركة حتى سقط الرجل من فوق الشجرة.

بعد ذلك قال هوكاي: «أنكس، شق طريقك إلى الزورقين، نحن بحاجة إلى مزيد من البارود والمؤن.»

وهز هوكاي قرن البارود والجراب ليتأكد من أنهما فارغان بالفعل، وانطلق الموهيكان الشاب مبتعدًا. وبعد مرور ثوان سمع دانكن وهوكاي صوت صياحه؛ وهو

إشارة تحذير من خطر جديد. ركض دانكن وهوكاي أسفل التل ليريا ماذا يحدث. ودوت الطلقات من حولهم. لقد عاد المزيد من رجال ماجوا لمحاربتهم!

كانت كورا وأليس وديفيد قد اتجهوا نحو ضفة النهر أيضًا عندما سمعوا صيحة أنكس. رأوا زورقهم منجرفًا مع المياه، فقد عثر عليه أحد رجال الأعداء في مخبئه بين الشجيرات ودفعه في النهر.

صاح هوكاي: «فات الأوان! ضاع كل شيء؛ ضاع كل ما نملك من بارود وذخيرة.»

أطلق مرشد من رجال الهيرون صيحات النصر من الضفة الأخرى من النهر.

سأل دانكن: «ماذا يمكننا أن نفعل؟ ماذا سيكون مصيرنا؟»

ازداد الغضب على وجه هوكاي عندما سمع رجال الهيرون يسخرون منه عند الضفة الأخرى من النهر، لكنه لم ينطق بكلمة واحدة.

قال ديفيد في إصرار: «من المؤكد أن وضعنا ليس ميئوسًا منه! لا يزال في إمكاننا القتال!»

أنزل تشينجاتشجوك فأسه ونزع ريشة النسر من رأسه في انكسار.

نظرت كورا إلى الرجال وقالت: «لماذا نموت كلنا؟ اهربوا إلى الغابة، هيا، نحن ندين لكم بالكثير بالفعل.»

أجاب هوكاي: «ونترككم هنا؟ لا يمكن أن نفعل ذلك، ثم إنه لا يوجد مخرج آمن من الغابة.»

فقالت كورا: «إذن اسبحوا في النهر، لماذا تبقون معنا وندعهم يقتلون أناسًا آخرين؟»

قال هوكاي في حدة: «ماذا سنخبر أباك يا كورا؟ ماذا سنقول له عندما يسألنا لماذا تركنا ابنتيه؟»

ردت كورا: «يجب أن تذهب إليه. أخبره أننا هنا، على وشك أن نتعرض للهجوم من قبل رجال الهيرون، وأننا هربنا إلى الغابات الشمالية. أخبره أن رجاله يمكنهم إنقاذنا إن أسرعوا.»

تحدث هوكاي إلى تشينجاتشجوك وأنكس. وأنصت تشينجاتشجوك جيدًا، وبعد لحظة لوح بيده وقال: «حسنًا.» ثم وضع فأسه في حزامه ووضع ريشة النسر في رأسه.

أومأ تشينجاتشجوك لأنكس وهوكاي، ثم انطلق نحو حافة الصخور وقفز في الماء.

نظر هوكاي إلى كورا وقال: «أنت شجاعة للغاية. إذا وقعتم في أسرهم بالفعل قومي بكسر أغصان الشجر في طريقك، وهذا سيمكننا من العثور عليكم.»

ثم استدار وشق الطريق الذي شقه تشينجاتشجوك، لكن أنكس ظل معهم.

قال بالإنجليزية: «سأبقى معكم، ليس من الصواب أن نترككم تواجهون مصيركم.»

قالت كورا: «كلا، من فضلك اذهب وابحث عن أبي، فنحن في مخبأ آمن هنا، وسنمكث هنا حتى تعود.»

بدا أنكس تعيسًا لحظة، لكنه فعل بعد ذلك ما طلبته منه كورا. وقف هو الآخر على حافة الصخور وقفز في النهر. وبعد أن نظرت كورا إلى أنكس لمرة أخيرة استدارت إلى دانكن وقالت: «دانكن، أعلم أنك تجيد السباحة، لقد حان دورك الآن.»

رد دانكن قائلًا: «واجبي هو حمايتكما، كما أن ...» ثم تلعثم وقال: «لا يمكنني أن أترك أليس خلفي.»

قالت كورا: «وقد أديت واجبك على أحسن وجه. نحن نريد منك الآن أن تذهب وتبحث عن أبي. أسوأ ما يمكنهم فعله هو أسرنا. إذا بقيت هنا فقد يقتلوننا. أنت تعلم أنني على حق! من فضلك يا دانكن، سأتكفل أنا بحماية أليس.»

لم ينطق دانكن بكلمة واحدة. نظر إلى أليس الجميلة ولم يرد أن يغادر: «هناك أشياء أسوأ من الوقوع في الأسر. لن أغادر وأترككما هنا.»

بعد أن غادر هوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس وقف دانكن للحراسة خارج الكهوف، فيما اختبأت كورا وأليس بالداخل. لم يستطع دانكن سماع شيء سوى صوت جريان النهر. بدت الغابة خاوية حتى من الحيوانات. وبدت ضفاف النهر ساكنة. لم ير دانكن الأعداء من مسافة بعيدة أو يسمع أصواتهم، لكنه كان متأكدًا من وجودهم.

دخل دانكن الكهف ورأى ديفيد جالسًا بالقرب من المدخل فقال له: «لا أرى أي فرد من الهيرون، لكن علينا أن نبقى مختفين في الوقت الحالي.»

أجابه ديفيد: «رأسي يؤلمني بشدة، لكن حمدًا لله أنني نجوت.»

قال دانكن: «علينا أن نضع البطاطين. هل ستستطيع فعل ذلك؟ علينا بعد ذلك الذهاب إلى أليس وكورا؟»

بعد ذلك رفع الرجلان البطاطين وعلقاها كما فعل الموهيكان بالضبط. بذلك سيتمكنون من إشعال النيران دون أن يرى أحد ضوءًا من الخارج.

اتكأ ديفيد على دانكن أثناء عودتهما إلى الكهف. كانت هناك مجموعة من نبات الساسفراس في الكهف، رقد ديفيد في سرور فوقها، وغطى نفسه ببعض الأغطية ليدفئ جسده.

ونظر دانكن إلى كورا وقال: «ما دمنا على قيد الحياة فهناك أمل.» ثم نظر إلى أليس التي كانت تبكي.

جففت دموعها وقالت: «انظر، لقد هدأ روعي الآن يا دانكن. لا بد أننا في أمان في هذا المخبأ.»

جثا دانكن بجوارها وضغط على يدها وقال: «لا أشعر بخوف ومعي امرأتان شجاعتان مثلك أنت وكورا.» ثم اتجه نحو مقدمة الكهف للمراقبة.

عزف ديفيد لحنًا على صافرته الصغيرة وبدأ يغني.

همست كورا: «ألن يعرضنا الغناء للخطر؟»

أجابها دانكن: «سيغطي صوت الشلالات على صوته.»

واصل ديفيد الغناء، ونظرت إليه كورا وأليس بعينين حنونتين. حتى دانكن لم يستطع كبت ابتسامته. لكن تلك اللحظة السعيدة لم تدم طويلًا. ففجأة سمعوا صوت صيحة في الخارج.

همست أليس: «لقد وقعنا في يدهم! لقد انتهى أمرنا!»

قال دانكن: «لم ينته بعد، هذا الصوت قادم من الجزيرة. لا تزال الشلالات تحمينا.»

عم الصمت بين الجالسين في الكهف. وسرعان ما سمعوا صرخات وصيحات من جميع الاتجاهات. اقتربت إحدى الصيحات من مدخل الكهوف للغاية حتى إن دانكن ظن أنهم عثروا على مكانهم.

همس: «تعالوا، علينا أن ندخل إلى الكهف الأصغر بالخلف. أسرعوا.»

ساعدت الفتاتان ديفيد على النهوض وتحركوا بسرعة خلف مجموعة أخرى من البطاطين. لكن تحركهم لم يكن سريعًا جدًّا. لقد عثر رجال الهيرون على الكهف الأمامي، وقلبوا نباتات الساسفراس وأطلقوا صيحات السرور، لكنهم لم يروا المدخل الخلفي.

وعندما رحلوا تنهد دانكن وقال: «لقد رحلوا، نحن في أمان مرة أخرى. امكثوا هنا، سأذهب لأتحقق من الأمر.»

تبعته كورا، لكنهما ما كادا يخرجان من الكهف حتى رأت كورا شيئًا جعل وجهها يشحب؛ لقد رأت ماجوا!

رآه دانكن أيضًا، وأدرك أن عيني ماجوا لم تتكيفا على الرؤية في الكهف المظلم بعد، فأطلق دانكن رصاصة من مسدسه دون تفكير. ورآه ماجوا وأطلق صيحة عالية. وفي غضون ثوان امتلأ الكهف برجال قبيلة هيرون.

الفصل الثامن

رحلة شاقة

أحكم أفراد من الهيرون قبضتهم على دانكن وكورا وأليس وديفيد، فيما فتش باقي الرجال الكهف.

سأل دانكن ماجوا: «عما يبحثون؟»

أجابه: «إنهم يبحثون عن «البندقية الطويلة»؛ الذي تنادونه بهوكاي. هو والرجلان اللذان يتنقلان معه أعداء قبيلتنا.»

قال دانكن: «لقد رحل.»

سأله ماجوا: «أين جثته؟ أين يمكننا أن نعثر على جثته؟»

أجاب دانكن: «إنه لم يمت؛ لقد هرب.»

قال ماجوا: «ورفيقاه أيضًا؟»

رد دانكن: «أجل، سبحوا في النهر. لن تجدهم.»

استدار ماجوا وشرح لرجاله ما حدث مع هوكاي ورفيقيه من الموهيكان. أسرع بعضهم إلى النهر ليتأكدوا بأنفسهم، وآخرون ضربوا جدران الكهف في غضب.

وسرعان ما اقتيد الأسرى الأربعة خارج الكهف ومنه إلى النهر. دفعهم الرجال إلى الزوارق وعبروا النهر. وعندما رسوا امتطى بعض من رجال قبيلة الهيرون خيولهم، وانطلقوا للبحث عن هوكاي ورفيقيه. أما كورا وأليس وديفيد ودانكن فظلوا مع ماجوا.

ظن دانكن أنهم سيأخذونهم إلى مونتكالم مباشرة، وتحرك ببطء نحو ماجوا للتحدث معه وعرض عليه المال في مقابل أن يأخذهم إلى حصن فورت ويليام هنري.

قال ماجوا: «اصمت، لا تتحدث إلا إذا طلبنا منك ذلك.»

دفع ماجوا ورجاله كورا وأليس فوق حصانين، وسار دانكن بجانبهما مع تحرك الجميع. واضطر ديفيد المسكين إلى السير أيضًا، على الرغم من أن رأسه كانت لا تزال تؤلمه.

سار الجميع في الاتجاه المعاكس لحصن فورت ويليام هنري. سلكوا مسارات مختلفة متعرجة، وأدرك دانكن أن المقصود من هذا إرباكهم بحيث لا يتمكنون من الوصول إلى موقع معسكر ماجوا وحدهم. قطعوا مسافة طويلة دون ظهور بصيص أمل للتوقف.

تذكرت كورا ما أخبرها به هوكاي؛ أن تكسر غصنًا متى استطاعت ذلك. مدت ذراعها النحيل وكسرت غصن شجرة كان في متناول يدها. كان من الصعب فعل ذلك في ظل مراقبة رجال ماجوا لكل تحركاتها، لكن عندما رأت الفرصة سانحة تمكنت من إسقاط قفازها وكسر غصن كبير.

صاح ماجوا: «مهلًا، رأيت ذلك!»

وسريعًا اتجه بحصانه إلى الفتاتين، وترجل من فوق حصانه والتقط القفاز وقال: «كفاك حيلًا أخرى كهذه، ولا تكسري أغصانًا أخرى.»

طلب ماجوا من أحد رجاله السير في طريق خاطئ وقطع المزيد من أغصان الشجر.

استمرت الرحلة طوال اليوم بين أشجار الصنوبر والممرات غير الممهدة وعبر جداول المياه والأنهار الصغيرة. تحرك ماجوا فوق حصانه في أدغال الغابة في سرعة وثقة من وجهته.

وأخيرًا وصلوا إلى مرج، ولوح بيده لكورا وأليس لتترجلا من فوق الحصان. صعدوا فوق تل كبير، وعندما وصلوا إلى قمته كانت القمة مستوية ومكسوة بالأشجار. ارتمى ماجوا على الأرض ليستريح وأمر باقي المجموعة بفعل ذلك.

كان التل مكانًا مثاليًّا للاستراحة، فقد كان مرتفعًا بدرجة تجعل من المستحيل أن يأتي شخص لإنقاذهم دون أن يراه ماجوا أولًا.

قرر دانكن أن يحاول التحدث مرة أخرى مع ماجوا: «ألا ترى النفع الذي سيعود عليك إذا أعدت الفتاتين إلى والدهما؟ سيكافئك بسخاء.»

قال ماجوا: «القائد أشيب الشعر رجل صعب المراس. إنه قاس حتى مع جنوده. عيناه صارمتان جامدتان.»

قال دانكن: «صحيح إنه قائد قوي، لكنه يحب كورا وأليس.»

ارتسم على وجه ماجوا تعبير غريب، لم يستطع دانكن تفسيره.

قال ماجوا: «أخبر الفتاة ذات الشعر الداكن أنني أريد التحدث معها.»

لم يكن دانكن راغبًا في استدعاء كورا، لكنه فعل ما طلبه ماجوا على أي حال. وأثناء توجهه معها إلى ماجوا همس إليها: «اعرضي عليه المبلغ الذي قد يقدمه أبوك مقابل تحريرنا. هذا قد ينقذ حياتنا.»

أومأت كورا موافقة، فقد أدركت أنهم في خطر كبير.

نظر ماجوا إلى دانكن وقال: «ارحل أنت.»

لم يتحرك دانكن، فقالت له كورا: «لا بأس، اذهب من فضلك وتأكد أن أليس على ما يرام.»

وعلى الرغم من أنها كانت تشعر بالخوف، استدارت نحو ماجوا وقالت: «ماذا لديك لتقوله لابنة الجنرال مونرو؟»

أخبرها ماجوا بقصة. قال لها إنه خاض مع أبيها حربًا، لكنه عصى أوامر الجنرال، فعاقبه. وأن الجنرال مونرو جرح مشاعره للغاية وسخر منه أمام باقي الرجال. وأخبرها أنه أسرها هي وشقيقتها للانتقام من أبيهما. وأنه ينوي الإبقاء على واحدة منهما معه للأبد!

قالت كورا: «من الأفضل حتمًا أن تأخذ الذهب من مونرو بدلًا من أن تأخذ ابنتيه وتحتفظ بهما هنا للانتقام منه.»

لكن ماجوا اكتفى بالضحك وهو يمضي مبتعدًا.

فجأة أمسك رجلان قويان بدانكن، وأمسك اثنان آخران بديفيد. حاول ديفيد ودانكن مقاومتهم والإفلات منهم، لكن رجال ماجوا كانوا أقوياء وقيدوهما إلى شجرة. وقيدوا أيضًا كورا وأليس، بكت أليس وهي تنظر إلى دانكن، تستنجد به لمساعدتها، لكنها أدركت أن هذا مستحيل. ضايق الرجال الفتاتين وسخروا منهما، ووكزوهما بأغصان الأشجار وراحوا يضحكون.

وألقى أحد الرجال بفأس تجاه رأس أليس، وكاد أن يصيبها، وقطع خصلة من شعرها، فاستشاط دانكن غضبًا حتى إنه تحرر من قيوده وركض تجاه الرجل الذي ألقى بالفأس. تعاركا معًا، وعندما اقتربت سكين الرجل من صدر دانكن للغاية سمع دانكن صوت أزيز وفرقعة من خلفه.

اندفع هوكاي وأنكس وتشينجاتشجوك من الغابة وقتلوا الرجل الذي كان يتعارك مع دانكن، وراح رجال الهيرون يصيحون ويصرخون مصدومين لمقتل واحد منهم.

دارت معركة عنيفة، وتشابك الفريقان بالأيدي. قاتل دانكن مع هوكاي وأنكس وتشينجاتشجوك.

نجت كورا من موت محقق عندما مرت فأس بجانبها واحتكت بكتفها، وقطعت الحبال التي تقيدها بالشجرة، فأسرعت لتحرر أليس. جذبت كورا الحبال التي تقيد شقيقتها بكل قوتها، لكنها لم تتمكن من حلها، فجثت على ركبتيها بجانب شقيقتها.

قُتل كل رجال ماجوا فيما عدا ماجوا نفسه، فقد كان يقاتل تشينجاتشجوك، وتدحرجا نحو الحافة العليا من التل. دفع تشينجاتشجوك ماجوا من فوق التل، بآخر ما تبقى لديه من قوة.

هرع أنكس ودانكن إلى الفتاتين وحررا أليس، التي ارتمت بين ذراعي كورا.

كان هوكاي لا يزال يهلل فرحًا بالنصر عندما لاحظوا أن ماجوا لم يمت، وأنه يتجه مسرعًا بعيدًا عن التل وهربًا من رجلي الموهيكان. بدأ أنكس وتشينجاتشجوك في الركض خلفه.

صاح هوكاي: «كلا! إنه رجل واحد أعزل، ماذا يمكنه أن يفعل؟»

وعلى الرغم من عدم رغبة تشينجاتشجوك وأنكس في السماح لماجوا بالرحيل، فقد أدركا أن هوكاي محق، فتوقفا عن مطاردته وعادا إلى المجموعة.

صاحت أليس في سعادة: «نحن طلقاء! ودانكن العزيز لم يمسه أذى.»

وفجأة أدركوا أن ديفيد لا يزال مقيدًا. حرره هوكاي، وساعد دانكن وأنكس الفتاتين على النهوض. ثم شقوا طريقهم عبر التل إلى حيث تقف خيول ماجوا لتأكل.

امتطت كورا وأليس حصانين فيما سار باقي الأفراد على أقدامهم. وسرعان ما عبروا النهير الصغير ووصلوا إلى واد صغير يظلله شجر الدردار. وهناك مرروا قارورة مياه عليهم وأعدوا بعض الطعام.

وبعد أن جلس الجميع، سأل دانكن: «كيف عثرتم علينا؟ وكيف أنقذتمونا دون مساعدة الجنود؟»

ضحك هوكاي وقال: «إذا انتظرنا مجيء الجنود ما استطعنا إنقاذكم. لقد اختبأنا بجانب النهر وراقبنا رجال الهيرون.»

قال دانكن: «إذن رأيتم كل شيء.»

أجاب هوكاي: «ليس كل شيء، كنا مختبئين، لكننا سمعنا كل شيء، تتبعناكم من خلال اقتفاء آثار أقدام الخيول.»

ثم أردف: «كان من الصعب منع أنكس من الاندفاع لإنقاذكم. كان علينا انتظار اللحظة المناسبة، حتى أدركنا أن لدينا فرصة مباغتتهم.»

تحدث هوكاي وهو يمرر قارورة المياه إلى دانكن، الذي أخذ رشفة كبيرة منها. وعندما انتهوا من تناول الطعام قال هوكاي: حان وقت الرحيل. ألقت كورا وأليس نظرة أخيرة على ينبوع الماء الجميل ثم امتطتا جواديهما. وتحركت المجموعة كلها بسرعة تجاه الشمال عبر ممر ضيق.

الفصل التاسع

أشباح في الغابة

حرص هوكاي على إخفاء آثار أقدامهم كي يصعب على ماجوا العثور عليهم. وبعد أن استمروا في السير لمدة طويلة، أزاح هوكاي بعض فروع الأشجار الضخمة جانبًا، وشق بينها طريقًا بين شجيرات الورد البري. ثم قادهم إلى كوخ عتيق، بدون سقف تقريبًا، لكن جدرانه كانت سليمة. ترجلت كورا وأليس على مضض من فوق الحصانين، خائفتين من دخول ذلك المكان المتهالك.

سأل دانكن: «ألن يكون من الأفضل أن نختبئ في الغابة؟»

أجابه هوكاي: «لا يعرف هذا الكوخ سوى القليل. نحن في أمان هنا.» ثم أخبر المجموعة عن معركة طاحنة دارت في هذا المكان منذ سنوات مضت.

عندما سمعت كورا وأليس القصة خشيتا أن تجلسا في مكان دارت فيه تلك المعركة، لكن هوكاي طمأنهما بأنه ليس هناك خوف من أن تضايقهما الأشباح!

بدأ تشينجاتشجوك وأنكس وهوكاي في العمل؛ صنعوا سريرين لكورا وأليس من الحشائش وأوراق الشجر، وغطوا السقف بأوراق شجر الكستناء. وسرعان ما استغرقت الفتاتان في نوم عميق في ركن صغير من الكوخ العتيق.

جلس دانكن بجوارهما على أتم استعداد، لكن هوكاي قال له: «استرح قليلًا، دع تشينجاتشجوك يحرسنا هذه الليلة.»

رفض دانكن في البداية، لكن هوكاي أصر. وسرعان ما استغرق الجميع في النوم عدا تشينجاتشجوك. جلس تشينجاتشجوك منتصبًا في سكون تام. رأى وسمع كل شيء: أصوات البوم والطيور الليلية وكل الكائنات الصغيرة التي تسير في أراضي الغابات.

وأخيرًا، هز تشينجاتشجوك كتف دانكن وقال بصوت خافت: «حان وقت الذهاب.»

أومأ دانكن برأسه قائلًا: «سأوقظ كورا وأليس وديفيد.»

قالت أليس بلطف: «لقد استيقظنا بالفعل، ونحن مستعدون للرحيل.»

قال دانكن: «لم أكن أرغب في النوم بعد أن ورطتكما في هذا الخطر الكبير. تعهدت بألا أرتاح حقًّا حتى تكونا في أمان.»

ابتسمت أليس وقالت: «إنك رجل نبيل يا دانكن، شكرًا لك.»

قال هوكاي: «صمتًا! لقد سمع تشينجاتشجوك وأنكس صوت شيء ما.»

زحف دانكن للأمام مع هوكاي لرؤية ما يحدث.

قال هوكاي: «أرى آثار أقدام رجل! إنه ماجوا! لا بد أنه اقتفى آثارنا.»

أمر هوكاي دانكن بوضع الخيول في الكوخ العتيق، فقد يضطرون أن يحتموا به.

وفي غضون دقائق كان الجميع منحنيًا داخل مكان الاختباء. سمعوا أصواتًا بالخارج. حدق دانكن وهوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس من خلال الشقوق الموجودة بجدران الكوخ ورأوا عشرين رجلًا من الهيرون يقفون في المكان يتحدثون. خشخشت فروع الأشجار مع تحركهم حول الكوخ.

وقبل أن يقتحم رجال الهيرون الكوخ مباشرة، توقفوا فجأة؛ فقد رأوا آثار المعركة السابقة! كان هناك آثار ضرب فئوس الهنود الحمر على الأشجار وأسهم مكسورة، وآثار طلقات نارية على الأرض. أصاب ماجوا ورجاله الذعر لما رأوه وتراجعوا على الفور.

وبعد فترة وجيزة لم يكن هناك سوى صوت أقدامهم وهي تبتعد عن الكوخ. انتظر هوكاي حتى أصبح المكان آمنًا ثم قاد المجموعة إلى الخارج.

لم ينطق أحد بكلمة واحدة أثناء هروبهم. وفي النهاية وصلوا إلى نهير صغير، وخلع هوكاي حذاءه وأشار لدانكن وديفيد أن يفعلا مثله. ثم نزلوا إلى النهير وساروا به، وبذا لم يخلفوا وراءهم أي أثر لتتبعه. قادوا الفتاتين وهما فوق حصانيهما في هدوء في الماء، وأخفوا آثار أقدامهم عندما عادوا إلى اليابسة.

قادهم الطريق الذي سلكوه إلى الجبال، فتوقف هوكاي وقال: «قد يكون خلف هذه الجبال جيش كامل من الجنود، لو أن الجيش الفرنسي تحرك كما أظن أنه فعل.»

سأله دانكن: «هل نحن على مقربة من حصن فورت ويليام هنري؟»

أجاب هوكاي: «لا نزال نبعد عن الحصن مسافة طويلة ومرهقة.»

قال دانكن: «علينا الإسراع. أظن أن المعركة بين الفرنسيين والإنجليز باتت وشيكة، ستدور رحاها حول الحصن من كل اتجاه.»

قال هوكاي: «إذن لا يمكننا أن نسير في هذا الطريق، لا نريد أن نسير وسط المعركة. علينا أن نشق طريقنا بين الجبال ونخرج من الجهة الأخرى.»